

المعجزة

"2"

كان الحديث بين سفير أفغانستان وبينني عابرا سريعا، والحديث كان عن المسلمين وأحوال المسلمين وبلاد المسلمين...

وقبل أن استأنف كلامي عن الكهانة وتجار الدين، والجريمة التي ارتكبوها فشوهوا بها حياتنا.. أود أن أسجل هنا بعض ما تضمنه ذلك الحديث.

أن سفير افغانستان عالم أشيب جليل رائع المنطق، وهو مسلم مثلي ومثل ملايين البشر.. لكن حديثه كان متحررا، الذي عرف يجعلك تذكر المناضل الباسل جمال الدين الافغاني الثائر المسلم، الذي عرف بوعيه العظيم أن مأساة المسلمين من صنع الكهانة. كما عرف أن الكهانة هي ربيبة الاستعمار.. فدعا في كل كلماته وفي إصرار وقوة الي القضاء عليه.. علي الأصل لكي يختفي الظل!!

وقد تحدثنا عن الأسلوب الذي يمكن أن تتوحد به الشعوب الإسلامية، وعن الأسس التي يمكن أن تتم في نطاقها هذه الوحدة.

أن الحاجة الي توحيد ملايين المسلمين العديدة، والتي لا حصر لها، علي أسس تتمشي مع الواقع الذي يعيش فيه العالم الآن.

وتساير التطور الهائل العظيم الذي بلغته الإنسانية أخيرا.. أقول أن هذه الحاجة لم تصبح ملحة فقط.. بل أصبحت ضرورة تحتمها رغبة تلك الشعوب في التحرر والانطلاق الي الحياة.. الي الحق والعدل والعمل..!

وتناول الحديث ثقافة الفرد المسلم، التي ليس لها طابع في الوقت الراهن، بل ليست لها معالم معروفة أو اتجاه معين!!

والثقافة كما هو معروف هي التي تحدد مقدار وعي الفرد. من ثم تلزمه بشق الطريق نحو مستقبله، وفي الحدود التي تحقق مصالحة وحياته وآماله بل وحقوق ومصالح وآمال الجماهير كلها..!

فإذا أردنا أن نحقق معجزة توحيد الشعوب الإسلامية علي أساس ما بغلة التطور الإنساني أخيرا من مدنية وعلم ومعرفة وحق وعدل ومساواة يجب أولا أن نبدأ في بعث ثقافة للفرد المسلم يفعل معها ويؤمن بها ومن ثم يبدأ في شق طريقه مع المجموع نحو الأهداف التي يكافح البشر — جميعا — من أجلها.. هذا هو الطريق!

وقد يفهم القارئ العادي أن المقصود بالثقافة هو التعليم في المدارس والجامعات؟! أن الفرق بين الثقافة والتعليم شاسع هائل، فالإنسان المثقف هو الذي يعرف وسائل الانطلاق في ذلك الطريق.. أما المتعلم فهو الذي يدرس لكي يحترف عملا يرتزق منه..! ولكي يتم خلق ثقافة الفرد المسلم... أعني ثقافة يكون لها طابع يتسم به مئات الملايين أتباع النبي المناضل محمد، جيب أن تكون الثقافة مستمدة أصلا من تاريخ هذه الملايين..! من نضالها من واقعها ومن مصالحها ومن حضارتها ومن أدبها ومن فنها، ثم لكي تصبح ثقافة واعية متقدمة ومتطورة يتحتم أيضا أن تكون مرتبطة بثقافة ووعي البشر جميع..!! فالثقافة في هذا العالم وحدة لا تتجزأ..

وكما قلت أمس من أن العرب ساهموا في بعث ثقافة أوروبا عندما بدأ عصر النهضة والثورة علي الكهانة، سوف يساهم الغير أيضا في بعث ثقافة المسلمين.. بما وصلوا اليه من تقدم من المحال تجاهله!

ويساعدنا — نحن المسلمين — علي بعث ثقافتنا وتمكينها من رؤوس الملايين تلك الحقيقة الناصعة التي تقول أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تضمن الي جانب مبادئه السماوية مبادئ اجتماعية تحدد قيمة الإنسان العظمي في الحياة ثم تعترف بحقه في العلم والرزق والحرية وكل ما يمنع عنه شبح المأساة.

فالإسلام مثلا لم يحتم شل نصف المجتمع – المرأة – والحيلولة بين هذا الاشتراك في نضال البشرية من اجل مستقبلها وأمنها وسلامها!..

لكن الكهانة وتجار الدين يفرضون علي المرأة المسلمة أن تولد ثم تلد ثم تموت!!

أي جعلت منها الكهانة آله مسيرة لا عقل لها ولا رأي.. ولا حق!..

فكيف يمكن – إذن – أن تبعث ثقافة الفرد المسلم ويتم توحيد الشعوب المسلمة.. أي كيف يمكن خلق نهضة المسلمين، ونصفهم – باسم الدين – يجب أن يظل مغلولا بلا عقل!؟

وكما قلت أمس أنه يمكن تفسير الدين.. لمصلحة أفراد.. وفي نفس الوقت نجد تفسيراً له لمصلحة المجموع.. هذا هو الأصل في وجود الأديان!

فقد فسر رجال الكنيسة في العصور الوسطي الدين المسيحي بما يتفق مع تفكيرهم الرجعي وبما يتفق مع مصالحهم ورغباتهم وحبهم للسلطة والنفوذ..

ومن بين تفسيرهم لرسالة عيسى ما حتموا علي المرأة من حجاب وعبودية. فتم بهذا فصلها عن المجتمع فصلاً تاماً فكان إذا أصيبت سيدة بمرض أو بوباء لا يسمح لطبيب من الرجال بإنقاذها من الموت.. لان رسالة المسيح – كما فهمها الكهنوت – تفرض علي المرأة أن تموت بدلاً من أن يراها رجل غريب.. حتى لو كان يحمل لها الدواء.

وفي نفس الوقت لا تجد رسالة المسيح – كما فهمها الكهنوت – مانعاً أن يري هذه المرأة المريضة أحد الكهان من الرجال فيظل بجوارها وهو ليس من العميان طبعاً، حتى إذا ماتت بين يديه يدخل في رحمها آله يرش منها الماء المقدس لتخليص روح الطفل الذي تعسرت في ولادته ثم ماتت بسبب ذلك العسر!؟

تلك إحدى الجرائم التي كانت تتم في كنف الكهانة أيام عصور الظلام!

فماذا كانت نتيجة هذا التفسير من الكهنوت لرسالة عيسى؟

ظلام ساد أوروبا... وجهل.. وعصف بالحقوق وبالحرريات وبالعمل..

ثم بعد أن تم القضاء علي الكهانة في أوروبا، وعرف الناس حقيقة رسالة دينهم أصبحت المرأة – الآن – هناك تعمل وتفكر وتتعلم وتبني الحضارة مع الرجل.. ولا يمنعها كل هذا أن تلد أطفالا.. هم لا شك أحسن حالا من أطفال عصر الكهنوت!

وأنا لا انسي حادثا وقع أمام عيني ذات يوم هنا في مصر.. فقد رأيت شابا متعلما ينتمي الي إحدى الهيئات المعروفة في إحدى المناسبات.. وكانت هناك سيدة فاضلة في المكان صافحناها جميعا – نحن الرجال – وكان زوجها طبعا معنا.. وعندما مدت السيدة الفاضلة يدها لذلك الشاب لتصافحه أرتد إلي الوراء مذعورا كأن أنسانا يهاجمه ليقتله، ورفض أن يصافح السيدة!

وسألناه لماذا.. والحيرة تستبد بنا ، ففهمنا منه أن الذين يوجهونه في الحياة ويخضع لهم في نشاطه وفي أفكاره أكدوا له أن محمدا الرسول " المناضل الحر" لم يضع يده في يد امرأة! وهكذا تفسر الكهانة دين محمد الآن مثلما فسرت الكهانة رسالة عيسى في عصور النذل والاستغلال والبطش.. العصور الوسطي!! ومن خلال هذا الحادث البسيط العابر يمكننا أن نفهم مدي ما يتمتع به تجار الدين في بلادنا من وعي وأيمان بالتطور الإنساني.. وبرسالة اقوي الثوار وسيد الأحرار محمد.. فهم بدلا من أن يقولوا لهذا الشاب أن محمدا قد دعا الي العمل وبناء المجتمع وتخليص البشرية من الجهل والجمود والاستغلال ونشر العمران والحضارة في جميع الأقطار.. يحدثونه عن وضع يد الرجل في يد المرأة وكيف يصبح هذا جريمة.. وكيف أن منع هذه الجريمة هو الهدف الذي نزلت أجله رسالة الإسلام...!

الكهانة آذن في بلاد المسلمين تريد أن تعطل نصف المجتمع... لحساب من..؟!!

أيفعلون ذلك لحساب النهضة والبعث والحرية والعدل والحق؟!!

أم لحساب التطور الانساني ومصالح الأفراد والجماعات؟!!

ولا هذا ولا ذلك

فتعطيل نصف المجتمع معناه تأخر هذا المجتمع وتخلفه عن اللحاق بموكب المدنية والعلم والتقدم.. وهذا آذن إنما يكون قطعاً لحساب أعداء البشرية.. لحساب الرجعية.. لحساب المشعوذين!!

وتمر بخاطري في هذه اللحظة تلك الصيحة الحرة التي انطلقت من فم الشاعر العربي المتنبّي بعد أن هالة ما فعلته الكهانة بالبشر في بلاد المسلمين فصرخ في مرارة:

هل غاية الدين أن تحفوا شواربكم

يا أمة ضحكت من جهلها الأمم.؟!

والي الغد.. نواصل حديثنا الطويل عن البعث الجديد..!!